بسم الله الرحمن الرحيم

لحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين،ثمّ أمّا بعد :

فإن اللّه ـ جلّ شأنه و تقدّست أسماؤه ـ فضّل العشر الأواخر من رمضان على غيرها من الليالي، وجعلها من أعظم

مواسم الآخرة،الّتي ينبغي لكلّ مؤمن صادق أن يغتنمها و يبتهلها لتكون مطيّة له إلى الدّار الآخرة .

ولِقَطْفِ ثمارها و تحصيل بركاتها و نيل خيراتها، وقفات سريعة لا بدّ من تأمّلها .

الوقفة الأولى:

أنّ قُدوم العشر الأواخر من رمضان، إنذار لكل ذي بصيرة ولب، بأن الشّهر قد آذن بالرّحيل، وحقٌّ لكل من أحب هذا الشّهر أن يحزن على فراقه ،لِمَا وَجد فيه من لذّة العبادة وارتقاء الرّوح ،وإنّ حزن العبد على فراق الحبيب ليوجب بذل الجهد للإحسان إلى من سيفارقه ، فمَنْ أحسن العمل فيها فقد وفّق لخير عظيم،

فقد أخبر النبي ﷺ أنّ الأعمال بالخواتيم، وذلك فيما أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه حيث قال:« ...**فقال النبي ﷺ :إنّ العبد ليعمل فيما يرى النّاس عمل أهل الجنّة وإنّه لمن أهل النّار، ويعمل فيما يرى النّاس عمل أهل النّار و هو من أهل الجنّة، ، وإنّما الأعمال بخواتيمها** ».

و عن الحسن بن عليّ العابد ، قال : قال **الفضيل بن عياضٍ** لرجل:« كم أتت عليك ؟ قال : ستّون سنة ، قال : فأنت منذ ستّين سنة تسير إلى ربّك توشك أن تبلغ ، فقال الرّجل : يا أبا عليّ إنّا للّه وإنّا إليه راجعون ، قال له الفضيل : تعلم ما تقول ، قال الرّجل : قلت إنّا للّه وإنّا إليه راجعون . قال الفضيل تعلم ما تفسيره ؟ قال الرّجل : فسّره لنا يا أبا عليّ ، قال : قولك إنّا للّه ، تقول : أنا للّه عبد وأنا إلى اللّه راجع ، فمن علم أنّه عبد اللّه وأنّه إليه راجع ، فليعلم بأنّه موقوف ، ومن علم بأنّه موقوف فليعلم بأنّه مسئول، ومن علم أنّه مسئول فليعدَ للسّؤال جوابا ،

فقال الرّجل: فما الحيلة ؟ قال : يسيرة ، قال : ما هي؟ قال : تحسن فيما بقي يُغفر لك ما مضى وما بقي، فإنّك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى وما بقي ».حلية الأولياء [م٨ : ٩٤]

الوقفة الثانية :

أنّ إحسان الظّنّ ليس بالتّمني، ولكنَّ إحسانَ الظّنّ بإحسانِ العمل، ورجاء الرّحمة مع العصيان ضربٌ من الحمق والخذلان، والخوف ليس بالبكاءِ وإنّما بترك ما يُخَافُ منه العقوبة.

قال **الحسن** رحمه الله:« إنّ قوما ألهتهم أمانيُّ المغفرة ،حتّى خرجوا من الدّنيا بغير عمل، يقولون إنّا نحسّن الظّنّ باللّه، وكذبوا لو أحسنوا الظّنّ لأحسنوا العمل».

ولهذا اجتهد قوم في بداية الشّهر فلمّا انتصف وأوشك على الذّهاب ، أصابهم الضّعف ونالهم التّعب ، وظنّوا أنّ فيما مضى كفاية .

واجتهد آخرون كذلك في أول الشّهر، ثم لمّا اقتربت نهايته وخاتمته، شُغلوا عن العمل بملابس العيد وحلوى العيد ... ؟! وهي حيلة من الشيطان يُلهي بها بني الإنسان عن طاعة ربّنا الرّحمان.

وقصّر أكثرهم ، فلم يهتمّوا لبدايته ولا فكّروا في نهايته ، وظنّوا أنّ الحياة طويلة ،والأعوام لذلك مديدة.

يقول العلامة **ابن القيم** رحمه الله: « **ومتى رأيته يستفيد غيرك وأنت لا تطلب ، ويستدني سواك وأنت لا تقرب. فإنْ تحركت لك قدم في الزيارة تخلف قلبك في المنزل ؛ فاعلم أنّه الحجاب والعذاب ....من ركب ظهر التفريط والتّواني نزل به دار الحسرة والنّدامة** ». بدائع الفوائد[م٣ :ص١٢٠٠]

الوقفة الثالثة:

أنّ الإقبال على طاعة اللّه جل وعلا والقرب من الرّب الكريم تبارك وتعالى، مطلوب في كلّ وقت وحين، ولكنّ ذلك في العشر الأخيرة من رمضان آكد، لأنّها أعظم فضلاً وأكثر أجرًا، يقترن فيها الفضل بالفضل، فضل العبادة وفضل الزّمان

ـ ففيها ليلة شرّفها اللّه على غيرها من اللّيالي، ليلة أنزل اللّه فيها القرآن، وأجزل فيها الإحسان، ليلة لا تشبه ليالي الدّهر، أخبرنا اللّه

سبحانه وتعالى عن فضلها في قوله تعالى:« **حم والكتاب المبين إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنَا كنّا منذرين فيها يفرق كلّ أمر حكيم** » [الدخان:١-٤]

قال ابن كثير رحمه الله : « يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيه من الآجال والأرزاق ،وما يكون فيها إلى آخرها .وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك ،ومجاهد والضّحاك وغير واحد من السّلف » التفسير [م١٢: ٣٣٥،٣٣٤]

ـ **وهذه الليلة:**العمل فيها أفضل من العمل في ألف شهر، قال تعالى:« ليلة القدر خير من ألف شهر» [القدر:٣].

فما أعظمها من منحة، وما أكرمها من عطية، ليلة واحدة تقومها للّه تكون خيرًا لك من عمرك كلِّه، خير لك من ثلاثة وثمانين عامًا وربع العام .

ـ **هذه الليلة** : أخبرنا النبي ﷺ عنها، أنّها سبب لغفران ما فعل من الذّنوب والخطايا طوال العمر الذي مضى، فقد قال: « **من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه**» متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ـ **وفي هذه الليلة:** يكثر تنزّل الملائكة فيها ، قال تعالى :«تنزّل الملائكة و الروح **فيها** » [القدر:٤]

وهم لا ينـزلون إلاّ بالخير و البركة و الرّحمة ، بل إن عددهم في الأرض أكثر من عدد الحصى ففي مسند الطيالسي و غيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ،أن النبي ﷺ قال:« **ليلة القدر ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، إنّ الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى** » . وهو حسن كما في الصحيحة[٢٢٠٥]

ولقد خفي تعينها اختباراً وابتلاء، ليتبين العاملون وينكشف المقصّرون، فمن حرص على شيء جدّ في طلبه، وهان عليه ما يلقى من عظيم تعبه.

قال **البغوي** رحمه الله :« وفي الجملة أبهم اللّه هذه الليلة على هذه الأمة ليجتهدوا في العبادة ليالي رمضان طمعا في إدراكها...». تفسير البغوي [م٥: ٢٨٨]

فاجتهد في قيام هذه العشر جميعاً، وأكثر فيها من الأعمال

الصالحة،وستظفر بها يقيناً بإذن اللّه ـ عز وجل ـ، ذلك لأن الأجر المرتب على قيامها حاصل لمن علم بها ومن لم يعلم ،لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يشترط العلم بها في حصول هذا الأجر، فمن قام ليالي العشر كاملة فهو بالتأكيد قد قام ليلة القدر.

الوقفة الرابعة:

في بيان دعوته عليه الصلاة والسلام إلى اغتنامها.

وهو القدوة بأبي هو وأمي ﷺ ـ الذي غفر له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخر- يسارع للمرضات ليكون عبدا شكورا، ويوجّه أمّته لتكون آخذة بما يسعدها في العاجلة و الآجلة .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت :« **كان رسول اللّه ﷺ يجاور [أي: يعتكف] في العشر الأواخر من رمضان ،و يقول :تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان** » متفق عليه. و عنها رضي الله عنها قالت :« **كان رسول اللّه ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره** » [رواه مسلم١١٧٥]

و عنها ـ رغم أنوف الشيعة الروافض ـ :« **كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، و أحيا ليله، و أيقظ أهله** » متفق عليه

وعنها رضي الله عنها :« **أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه اللّه عز وجل، ثمّ اعتكف أزواجه من بعده** » مسلم [٥ :١١٧٢]

وعنها رضي الله عنها قالت :« **قلت :يا رسول اللّه: أرأيت إن علمت أيّ ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها ؟ قال قولي: اللهم إنّك عفوّ تحب العفو فاعف عنّي** » رواه الترمذي وغيره، وهو في المشكاة [٢٠٩١]

الوقفة الخامسة:

أن العبادة والقيام والذكر والطاعات والقربات وكفّ النفس عن حظوظها وشهواتها، هي أعظم ما يُبذل للّه فيها، والنّفس لذلك بحاجة إلى مجاهدة حتى تطاوع صاحبها وتنقاد له .

فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال :« **و المجاهد من جاهد نفسه في اللّه** » رواه الترمذي وهو في الصحيحة [٥٤٩] .

وقال ابن رجب رحمه الله :« واعلم أن نفسك بمنزلة دابّتك، إن عرفت منك الجد جدّت، وإن عرفت منك الكسل طمعت فيك وطلبت منك حظوظها وشهواتها».نقلا من كتاب الدّرر المنتقاة ص[٣٥١]

فاغتنم بقية شهرك فيما يقرِّبك إلى ربك ، وبالتزوُّد لآخرتك من خلال قيامك بما يلي :

١.**إحياء الليل**: كما مرّ في حديث عائشة رضي الله عنها: « **خاب شانيها** » ، ومعنى إحياء اللّيل : أي استغرقه بالسّهر في الصّلاة والذّكر و غيرهما.

ويحصل أجر القيام لمن قام مع الإمام حتىّ ينصرف، لحديث أبي ذر رضي الله عنه قال: صمنا مع رسول اللّه فلم يصلّ بنا حتىّ بقي سبع من الشّهر، فقام بنا حتىّ ذهب ثلث اللّيل، ثم لم يقم بنا في السّادسة، وقام بنا في الخامسة حتىّ ذهب شطر اللّيل، فقلنا له: يا رسول اللّه، لو نفّلتنا بقية ليلتنا هذه ،فقال : « **إنّه من قام مع الإمام حتىّ ينصرف كتب له قيام ليلة** » رواه الترمذي وهو في صحيح سنن الترمذي[٨٠٦].

وإحياؤه بالقرءان كذلك ،لأجل أنّ شهر رمضان هو شهر القرآن الكريم، كما ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

٢ ـ **إيقاظ الأهل للصّلاة** : فقد كان من هديه عليه الصّلاة السّلام، كما علمته من حديث عائشة رضي الله عنها ،وهذا لحرصه عليه الصّلاة والسّلام على أن يدرك أهله من فضائل ليالي هذا الشّهر الكريم.

وكان سفيان الثّوري رحمه الله يقول: « أحبّ إليّ إذا دخل العشر الأواخر، أن يتهجد باللّيل، ويجتهد فيه وينهض أهله وولده إلى الصّلاة إن أطاقوا **ذلك**» [لطائف المعارف ٢١٨].

٣ ـ**الاعتكاف**:« وهوسنة نبوية،وحقيقته ومقصوده، وروحه عكوف القلب على اللّه تعالى، وجمعيّته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهمّ كلّه به، والخطرات كلّها بذكره، والتفكر فى تحصيل مراضيه وما يقرّب منه، فيصير أنسه باللّه بدلا عن أنسه بالخلق،فيعده بذلك لأنسه به يوم الوَحشة في القبور حين لا أنيس له،ولا ما يفرح به سواه،فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم...» زاد المعاد[٢: ٨٧]

٤ـ**الدّعاء** : وهو ما علِمَتْهُ من حديث عائشة الحريصة على الخير، فقد قالت للنّبي صلى الله عليه وسلم :» **يا رسول اللّه: أرأيت إن علمت أيّ ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها ؟ قال قولي: «اللهم إنّك عفوّ تحبّ العفو فاعف عنّي»** .

فلا تبخل على نفسك بالدعاء في هذه الليالي بل و هذه الأيام لما اجتمع فيها أوقات فاضلة وأحوال شريفة: فعشر مباركة، وجوف اللّيل ،ودبر الأذان والمكتوبات، أحوال السّجود، وتلاوة القرآن، ومجامع المسلمين في مجالس الخير والذّكر...ومن تأمّل في الدّعاء الذي علّم عليه الصلاة والسلام،والتّناسب الحاصل له مع ليالي المغفرة والعفو،أدرك قيمة التّعليم النّبوي .

قال **ابن القيّم** رحمه الله:« ومن حكمة اللّه عز وجلّ تعريفه عبده أنّه لا سبيل له إلى النّجاة إلاّ بعفوه ومغفرته جلّ و علا وأنّه رهين بحقّه، فإنْ لم يتغمّده بعفوه و مغفرته، وإلاّ فهو من الهالكين لا محالة فليس أحد من خلقه إلاّ وهو محتاج إلى عفوه و مغفرته كما هو محتاج إلى فضله ورحمته» مفتاح دار السعادة [١: ٣١٣].

٥ـ **الاجتهاد فيه بصنوف العبادات المشروعة** : وهو مأخوذ من قولها « شدّ مئزره » ، وعليه فكن مسارعا للخيرات، تبتغي الدرجات،جاعلا هذه اللّيالي سبيلا لك إلى الجنّة ،تجتهد فيها بما ذُكر، وتزيد عليها ألوانا أخر من الطّاعات والقربات.

الوقفة السادسة :

اعتاد النّاس عند عدم فعل الطّاعات، القول «**ربِّ لم يوفّقنا**» أو إذا سألتهم عن عدم الصّلاة قالوا « **اللّه لم يهدنا**»، وهو كلام باطل من أساس. صحيح أنّ هداية القلوب إلى علاّم الغيوب هي بتوفيق من اللّه ﴿ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:١٤٦]

وهي ليست بيد أحد من النّاس ولو كان أقرب قريب ، قال اللّه عن نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.[القصص:٥٦]

و مع هذا ينبغي أن يعلم أن التّوفيق من اللّه وإعانته، إنّما يكون على قدر نيّة العبد وهمّته ومراده ورغبته، فقولهم ذاك شبهة إبليسيّة .

فمن تحرّكت نيّته للّه و اشتدّت رغبته فيما عند اللّه ،تَوَجَّه للعمل، واللّه هو المعين له والموفّق سبحانه تعالى، قال **ابن القيم** رحمه الله:« فالمعونة من اللّه تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك ،فاللّه سبحانه ـ أحكم الحاكمين

وأعلم العالمين ـ يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم ».فوائد الفوائد [٨٠]

فمن حسنت نيّته ،وصدق عزمه ،وعظمت مراقبته ، فإنّ اللّه يوفّقه للأعمال الصالحة.

و حقيقة التوفيق كما قال **ابن القيم** رحمه الله : « أن لا يكلك اللّه إلى نفسك، وأنّ الخذلان :هو أن يخلَّى بينك و بين نفسك، فإذا كان كلّ خير فأصله التوفيق ـ وهو بيد اللّه لا بيد العبد ـ: **فمفتاحه الدّعاء والافتقار وصدق اللجإ والرّغبة و الرّهبة إليه**، فمتى أَعْطَى العبدَ هذا المفتاحَ فقد أراد أن يفتحَ له، ومتى أضلّه عن المفتاح بقي بابُ الخير مُرتجا دونه» فوائد الفوائد [٧٩]

وفي جريدة البصائر أبيات ماتعة للأستاذ محمّد العيد **في وداع رمضان**

لا يحمد الورد حتّى يحمد الصدر

الصّوم للنّفس عرش جوانبه	فاضت بوادر خير دونها البّدر
أظلّ دارا سناها مشرق أبدا	لو لم يغطّ سناها المشرق المدر
الصّوم للملإ العلوي مرتفع	والفطر للملإ السّفلي منحدر
يا نفس أَزْمَع عنك الصّوم رحلته	فودّعيه يودع جَوّك الكدر
ما بال جِسْمَكِ طول اللّيل مطّرحا	كأنّما فيه وهن أو به خدر!؟
تهجّدي في اللّيالي العشر وارتقبي	في ليلة القدر ما يسخو به القدر
ولا تكوني بطيب الورد قانعة	لا يحمد الورد حتّى يحمد الصدر

العدد ٤٧ :٢٦ رمضان ١٣٥٥ هـ / ١١ ديسمبر ١٩٣٦

فبادر لإصلاح نيّتك واستعن باللّه ولا تعجز، والصدق الصدق، فمن صدق اللّه صدقه .

وأسأل اللّه لي ولكم التوفيق والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين.

سلسلة مطويات الفضيلة (28)

وقفات مع العشر الأواخر من

ياسين شوشار
إمام خطيب - الجزائر العاصمة

دار الفضيلة للنشر والتوزيع